كليـــة : الآداب

القسم او الفرع : قسـم التاريـخ

المرحلة: الثـانيـــــــــــــــة

أستاذ المادة : أ.م.د عمـاد كريـم عبـاس

اسم المادة باللغة العربية : تاريـخ الدولـة العثمانيـة

اسم المادة باللغة الإنكليزية : History of the Ottoman Empire

اسم المحاضرة السادسة باللغة العربيـــة: فتـح القسطنطينيـــــة 1453

اسم المحاضرة السادسة باللغة الإنكليزية : The conquest of Constantinople 1453

فتــح القسطنطينيــة 1453م :

تعد القسطنطينية من أهم المدن في التاريخ ، من حيث الأهمية التاريخية والاستراتيجية والموقع الجغرافي ، والأهمية الاقتصادية والتجارية . كانت قرية صغيرة للصيادين قبل أن تأخذ مكانتها الهامة في عهد الإمبراطور قسطنطين Constantine ، الذي جعلها عاصمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية Byzantine Empire عام ٣٣٠م ومقر الكنيسة الأرثوذكسية، ولقد سميت باسم مؤسسها . لم تتبوه القسطنطينية تلك الأهمية الكبرى إلا من حيث موقعها الفريد ، فهي شبه جزيرة تحيطها المياه من ثلاث جهات، لذلك اكتسبت مناعتها المعروفة ، هذا فضلا عن الحماية الصناعية المتمثلة في الأسوار الضخمة والأخاديد المائية التي تحيط بالمدينة ، فقد تفنن الأباطرة المتلاحقون في تحصينها لحساسية مركزها وموقعها الرابط بين قارتي آسيا وأوروبا بالإضافة إلى أنها أصبحت بعد ذلك أهم مراكز التجارة العالمية ، فقد سيطرت على تجارة البحر الأسود وهى ملتقى الطرق التجارية بين آسيا حيث الطرق البرية المؤدية إلى الهند والصين ، وبين وسط وغرب أوروبا ، مما جعلها مطمعاً لقوى عديدة عبر الزمن هكذا طمح المسلمون منذ بداية دولتهم في تحطيم النصرانية ممثلة في القسطنطينية ، فكانت القسطنطينية بمثابة الدرع المنيع ، الذي منع الإسلام من الولوج إلى قارة أوروبا على مدى ثمانية قرون لذلك كان مشروع الخلافة الأول بعد قضائهم على دولة الفرس هو فتح القسطنطينية.

كان أول ما شغل السلطان محمد بعد توليه السلطة ، هو فتح تلك المدينة بأية وسيلة ممكنة ، فمن واقع دراسته للتاريخ علم محاولات المسلمين المستمرة لفتح هذه المدينة فضلا عن تلك القوة الكبيرة التي تمتع بها المسلمون آنذاك ، وحشدهم كل الامكانيات الممكنة ، لذلك بدأ يستعرض أسباب ذلك العجز المستمر ومحاولة تدارك الأخطاء ووضع الآليات المناسبة والإمكانيات الفائقة لحسم ذلك الأمر.

كانت أولى الخطوات الإستراتيجية الفعالة التي قام بها ، هي بنائه قلعة روملي حصار التي تطلق عليها المصادر الغربية اسم القلعة قاطعة الرقبة - في أضيق مكان من البسفور ، في مواجهة قلعة بايزيد يلدرم (أناضولي حصار) ، وبذلك استطاع إحكام الرقابة على البسفور والتحكم في الدخول والخروج . لقد أصبح السلطان محمد الفاتح بهذه الطريقة هو المؤسس الفعلي الاستراتيجية (حصار (المضايق) ، والتي أصبحت أساساً بعد ذلك في خوض المعارك الكبرى المستندة على منافذ بحرية ، خاصة عند الدول العظمى في العصر الحديث ، ومن أشهر الأمثلة على استخدامها كان في الحرب العالمية الثانية ، من قبل كل من ألمانيا وانجلترا ، فقد كانت النيران المتقاطعة للمدافع على الجانبين لا تسمح بعبور أي سفينة معادية . لم يكتف السلطان بهذا ، بل أراد أن يضع استراتيجيات جديدة تنهى حصار المدينة في أقل وقت ممكن، فكلما طال الوقت صعب الفتح ، فلقد حوصرت المدينة في الماضي ما يقرب من سنة دون أن تسقط ، ولم تستطع المدافع التي استخدمها والده مراد الثاني في الحصار عام ١٤٢٢م أن تفعل شيئاً ، هكذا قرر صنع المدافع بشكل مختلف ، وبناءً على ذلك توصل إلى نوعين من المدافع، تغيرت على أساسهما استراتيجية الحرب في العصر الحديث ، وهما المدافع الباليستية ضخمة

الحجم ومدافع الهاون التي استعملت لأول مرة في التاريخ، وكان لها فاعلية كبرى ضد وحدات الاسطول البيزنطي . وكان على السلطان أن يعرف حجم المقذوف الذي يستطيع التأثير في تلك الأسوار الضخمة ، فوجد أن حجم هذا المقذوف سوف يتطلب صنع مدفع ذو حجم خاص جدا لم يصنع من قبل ، لذلك استعان بصانع المدافع المجري الأصل (أوربان Urban) ، وبالفعل استطاع صنع أكبر مدفع في ذلك العصر.

لقد وصف الطبيب البندقي نيقولا ما رآه من قوة هذا المدفع الجبار فقال : (امتازت المدافع بكبر حجمها بشكل واضح ، وكان لأحدها حجم ضخم بشكل استثنائي ونادر ، يلقي بقذيفة يبلغ وزنها ألف . ومائتي رطل ، وعندما يقوم بإطلاق القذيفة فان صوت انفجارها يجعل كافة أسوار المدينة والأرض الداخلية بها تصاب بالارتجاج ، حتى السفن في الميناء تشعر أيضا بالاهتزاز من جراء ذلك ، وبسبب الضجة الهائلة التي أحدثها هذا المدفع فإن العديد من النسوة قد أغمى عليهن جراء الصدمة التي سببتها عملية إطلاق القذائف ، ولا يوجد مدفع أضخم من ذلك

المدفع). أما بالنسبة للأسطول ، فكان فتح القسطنطينية نقطة فاصلة في تاريخ البحرية العثمانية إجمالاً . لقد كان وضع القسطنطينية كشبه جزيرة يفرض على السلطان الاستعانة بأسطول قوى ، كما استعانت من قبل الجيوش العربية الإسلامية في محاولاتها الأولى ، لكن الدولة العثمانية حتى عصر الفاتح لم تكن تخبر أساليب القتال البحري كما يجب ، فلم يكن لديها أسطول مدرب على رأسه قيادات بحرية ماهرة ، كما هو الحال بالنسبة لأساطيل البنادقة والبيزنطيين المدافعة عن المدينة ، لذلك عمل السلطان محمد منذ أن بدأ في التخطيط لحصار المدينة ، على إنشاء أسطول كبير متعدد الوحدات ، يعتمد عليه في الحرب البحرية . .

فكما كانت حملات العرب على القسطنطينية حجر زاوية في بناء سياسة بحرية جديدة وتطويراً هاماً في الاستراتيجية البحرية الهجومية للدولة العربية الإسلامية قوامها خلق تعاون قوى وتنسيق تام بين القوات البرية والبحرية في الهجوم والغزو كان كذلك حصار القسطنطينية وبناء خطة هجوم برية بحرية ذات تكامل وتناسق من قبل محمد الفاتح بدأ في

تشكيل الاستراتيجيات البحرية للأساطيل العثمانية وجعلها ذات فاعلية كبيرة وقدرة على اكتساب الخبرة في الميدان البحري بسرعة كبيرة.

استطاعت من خلالها أن تتفوق على أساطيل الدول البحرية ، وتستولى على معظم جزر البحر المتوسط ، وهذا ما أدى بالفعل إلى تسليم الدول البحرية مثل البندقية وجنوة ومن بعدهم البرتغال وإسبانيا ، بالسيطرة التامة للقوات العثمانية بشكل لا ينازع فيه على الأجزاء الشرقية للبحر المتوسط ، مما أدى الي انتقال الصراع العثماني - الأوروبي بشكل كبير إلى الأجزاء الغربية من البحر المتوسط ، فضلا عن وسط أوروبا حيث وصلت القوات العثمانية عام ١٥٢٩م الي أبوب فيينا . يقول بروكلمان : (لكن محمد الفاتح كان أول من أورث العثمانيين السمعة التي يستحقونها في البحر أيضا) تختلف المصادر في تقدير عدد سفن الاسطول التركي المشترك في حصار وفتح القسطنطينية ، لكن تعداده بالتأكيد لم يكن كبيراً بالمقارنة مع الأساطيل الإسلامية التي حاصرت المدينة من قبل ، وخاصة حملة سليمان بن عبد الملك عام ٩٨ للهجرة والتي وصل فيها عدد السفن الي ١٨٠٠ سفينة ، فكان بذلك أكبر حشد من السفن عرف في العصور الوسطى ، كان الأسطول العثماني مكونا من حوالي ١٤٥ سفينة طبقا لرواية بربارو أما دوكاس فيتحدث عن ثلاثمائة سفينة ظل هذا الأسطول بالرغم من احتلاله للجزر الصغيرة القريبة من المدينة، بالإضافة إلى تحكمه الكامل في البوسفور Bosphorus أمامه عقبة كنوداً حتى يتسنى له حصار المدينة بحرياً بشكل كامل وإحكام السيطرة عليها ، لقد نصبت سلسلة حديدية ضخمة أغلقت الخليج الذي يحد المدينة من الناحية الشمالية (خليج القرن الذهبي حيث يربض خلف هذه السلسلـــــــــــــــــــــــــــــة العديد من وحدات الاسطول البيزنطي، تمكنت من حمايتها ومنـــع السفن العثمانية الدخول في الخليج خلال الأيام الأولى من الحصار كانت هذه الطريقة تستخدم كثيرا في حماية المدن البحرية في العصر الوسيط ، فقد تحدث المقريزي عن السلسلة التي كانت تحمى مدينة دمياط الواقعة على دلتا النيل، لتعرضها للحملات الصليبية خلال العصر الوسيط

استطاع السلطان محمد الفاتح ابتكار حيلة بارعة قام فيها بالتغلب على السلسلة البحرية والسفن المتراصة خلفها دون أي اشتباكات أو خسائر ، وكانت هذه الخطة هي الأولى من نوعها في التاريخ العسكري ، ولقد أجمعت المصادر على نسبة هذه الخطة الرائعة إلي الذكاء العسكري لمحمد الفاتح . استطاعت هذه الخطة نقل السفن من مرساها وإنزالها خلف السلسلة عن طريق البر ، حيث كانت المسافة التي ينبغـــــــــــــــــي أن تقطعها السفن نحو ثلاثة أميال فوق أرض وعرة ومرتفعـــــــــة .

يتحدث بربارو عن الطريقة التي سحبت بها السفن عن طريق البر، حيث قام الجيش العثماني بتسوية الطريق وتمهيده ووضعوا به عددا ضخماً من البكرات ، التي جرى تشحيمها جيدا بالدهون والشحوم ، حتى يمكنها أن تقوم بسحب السفن الي الميناء بسرعة وسلاسة ، وعندما رأى الأتراك أن الخطة قد جرى تنفيذها بشكل جيد ، أقدموا على سحب العديد من السفن التي كانت تحتوى على خمسة عشر مقعدا إلى عشرين أو اثنين وعشرين مقعدا للمجدفين لقد استطاعوا نقل ما يقرب من اثنتين وسبعين سفينة في ليلة واحدة ، حتى أن البيزنطيين قد فوجئوا في الصباح بالأسطول العثماني أمام الأسوار الشمالية فانهارت المعنويات تماماً وكان ذلك من العوامل التي أكدت سرعة النصر.